تفسير سورة الصّف

وهى مدنية

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن سلام قال: تذاكرنا: أيكم يأتى رسول الله ﷺ فيسأله : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم أحد منا ، فأرسل رسولُ الله ﷺ إلينا رجلا ، فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة ، يعنى سورة الصف كلها . هكذا رواه الإمام أحمد (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ۝ ﴾

تقدم الكلام على قوله : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ غير مرة ، بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ إنكار على من يَعد وعدا، أو يقول قولا لا يفى به، ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقا ، سواء ترتب عليه غُرم للموعود أم لا . واحتجوا أيضا من السنة بما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث :إذا حَدَّث كذب ،وإذا وَعَد أخلف ، وإذا اؤتمن خان» (٢) . وفى الحديث الآخر فى الصحيح : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصاً ، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خَصْلَة من نفاق حتى يَدَعها »(٣) فذكر منهن إخلاف الوعد.ولهذا أكد تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ . وذهب الإمام مالك ،رحمه الله ، إلى أنه إذا تعلق بالوعد غُرم على الموعود وجب الوفاء به ، كما لو قال لغيره : « تزوج ولك على كل يوم كذا » . فتزوجَ ، وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك ، لأنه تعلق به حق آدمى ، وهو مبنى على المضايقة . وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقا ، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فَرضيَّة الجهاد عليهم، فلما فرض نكل عنه بعضهم ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا . أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : ٧٧، ٧٨] . وقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ الآية [محمد : ٢٠] وهكذا هذه الآية معناها ، كما قال ابن عباس فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لَوَدِدْنا أن الله ـ عز وجل ـ دلنا على أحب الأعمال

(١) المسند (٥ / ٤٥٢) والحاكم فى المستدرك (٢ / ٤٨٧) وصححه ، ووافقه الذهبى .

(٢) البخارى (٣٣) ومسلم (٥٦ / ١٠٧) .

(٣) البخارى (٣٤) ومسلم (٥٨ / ١٠٦) .

إليه، فنعملَ به . فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمانٌ به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به. فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فقال الله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ ؟ . وهذا اختيار ابن جرير . وقال مقاتل بن حيّان : قال المؤمنون : لو نعلم أحبّ الأعمال إلى الله لعملنا به . فدلهم الله على أحب الأعمال إليه، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ ، فبين لهم ، فابتلوا يوم أحد بذلك ،فولوا عن النبي ﷺ مدبرين ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ ؟ وقال : أحبكم إلى من قاتل في سبيلي .

ومنهم من يقول : أنزلت في شأن القتال ، يقول الرجل : قاتلت ولم يقاتل ، وطعنت ولم يطعن، وضربت ولم يضرب، وصبرت ولم يصبر . وقال قتادة ، والضحاك : نزلت توبيخاً لقوم كانوا يقولون : « قتلنا ، ضربنا ، طعنا ، وفعلنا» . ولم يكونوا فعلوا ذلك . وقال ابن يزيد : نزلت في قوم من المنافقين ، كانوا يَعدون المسلمين النصرَ ، ولا يَفُون لهم بذلك. وقال زيد بن أسلم :﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ ، قال: في الجهاد.وقال مجاهد : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ إلى قوله :﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ فما بين ذلك : في نفر من الأنصار ،فيهم عبد الله بن رواحة ، قالوا في مجلس : لو نعلم أيّ الأعمال أحبّ إلى الله ، لعملنا بها حتى نموت .فأنزل الله هذا فيهم . فقال عبد الله بن رواحة : لا أبرح حبيسا في سبيل الله حتى أموت . فقتل شهيداً .

ولهذا قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾، فهذا إخبار من الله تعالى بمحبة عباده المؤمنين إذا اصطفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى، يقاتلون في سبيل الله مَن كفر بالله ،لتكون كلمة الله هي العليا ، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان. وروى ابن أبي حاتم عن مُطرّف قال:كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه ، فلقيته فقلت: يا أبا ذر ، كان يبلغني عنك حديث ، فكنت أشتهي لقاءك ، فقال : لله أبوك ! فقد لقيت ، فهات . فقلت : كان يبلغني عنك أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم أن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة ؟ قال : أجل ، فلا إخالني أكذب على خليلي ﷺ . قلت : فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله ؟ قال : رجل غزا في سبيل الله ، خرج محتسبا مجاهدا فلقي العدو فقتل ، وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل، ثم قرأ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ وذكر الحديث . وقد أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي ذرّ بأبسط من هذا السياق وأتم [1] .

وقال سعيد بن جبير في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ قال : كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين . قال : وقوله : ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ : ملتصق بعضه في بعض ، من الصف في القتال .وقال مقاتل بن حيان : ملتصق بعضه إلى بعض .وقال ابن عباس : ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ : مُثبّت ، لا يزول ، ملصق بعضه ببعض . وقال قتادة : ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾: ألم تر إلى صاحب البنيان ،كيف لا يحب أن يختلف بنيانه ؟ فكذلك الله عز وجل لا يحب أن يختلف أمره ،وإن الله صف المؤمنين في قتالهم وصفَّهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله، فإنه عصمة لمن أخذ به .

---

(١) الترمذي (٢٥٦٨) وقال الترمذي : « هذا حديث صحيح » والنسائي (٢٥٧٠) .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ أى : لم توصلون الأذى إلىّ وأنتم تعلمون صدقى فيما جئتكم به من الرسالة ؟ . وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر ؛ ولهذا قال : « رحمة الله على موسى : لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر» (١) . وفيه نهى للمؤمنين أن ينالوا من النبى ﷺ أو يُوَصّلوا إليه أذى ، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الاحزاب :٦٩] .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أى : فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به ، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى ، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان ، كما قال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الانعام : ١١٠] وقال: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] ولهذا قال الله تعالى فى هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ يعنى : التوراة قد بَشَّرت بى ، وأنا مصداقُ ما أخبرت عنه، وأنا مُبَشّر بمن بعدى ، وهو الرسول النبى الأمى العربى المكى أحمد . فعيسى ، عليه السلام ، هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل ، وقد أقام فى ملأ بنى إسرائيل مبشراً بمحمد، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذى لا رسالة بعده ولا نبوة. وما أحسن ما أورد البخارى عن جُبَير بن مُطعم، قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول : « إن لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يَمحُو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب » .ورواه مسلم(٢) . وروى أبو داود الطيالسى عن أبى موسى قال: سَمَّى لنا رسول الله ﷺ نَفسه أسماءَ ، منها ما حفظنا فقال : « أنا محمد ، وأحمد، والحاشر ، والمقفى ، ونبى الرحمة ،والتوبة ، والملحمة » .ورواه مسلم(٣) .

وقد قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾ [الاعراف:١٥٧] وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٨١] . قال ابن عباس:ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد : لئن بعث محمد وهو حى ليتبعنه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه. وقال محمد بن إسحاق عن

(١) البخارى (٣٤٠٥ / ١٠٦٢) ومسلم (١٤٢ /) .
(٢) البخارى (٤٨٩٦) ومسلم (٢٣٥٤ / ١٢٤) .
(٣) أبو داود الطيالسى فى مسنده (٤٩٢) ومسلم (٢٣٥٥ / ١٢٦) .

خالد بن مَعْدَانَ ، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك . قال: « دعوة أبى إبراهيم ، وبُشْرَى عيسى ، ورأت أمى حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام » (١) . وهذا إسناد جيد. ورُوى له شواهد من وجوه أخر ، فروى الإمام أحمد عن العِرْباض بن سارية قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجَدلٌ فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك : دَعْوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بى، ورؤيا أمى التى رأت، وكذلك أمهات النبيين يَرَين » (٢) .

وروى أحمد أيضا عن أبى أمامة قال : قلتُ: يا نبى الله، ما كان بدء أمرك ؟ قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبُشْرَى عيسى ، ورأت أمى أنه يخرجُ منها نور أضاءت له قصورُ الشام » (٣).

وروى أحمد أيضا عن عبد الله بن مسعود قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشى ونحن نحوٌ من ثمانين رجلا ، منهم : عبد الله بن مسعود ، وجعفر ، وعبد الله بن [عُرْفُطَة] (٤) ، وعثمان بن مظعون ، وأبو موسى . فأتوا النجاشى ، وبعثَت قريش عَمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد بهدية ، فلما دخلا على النجاشى سَجَدا له ، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ، ثم قالا له: إن نفراً من بنى عمنا نزلوا أرضك ، ورغبوا عنا وعن ملتنا . قال : فأين هم ؟ قالا : هم فى أرضك، فابعث إليهم. فبعث إليهم . فقال جعفر : أنا خطيبكم اليوم . فاتبعوه فسلَّم ولم يسجد ، فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ قال : إنا لا نسجد إلا لله عز وجل . قال : وما ذاك ؟ قال : إن الله بعث إلينا رسوله ، فأمرنا الا نسجد لأحد إلا لله عز وجل ، وأمرنا بالصلاة والزكاة .

قال عمرو بن العاص : فإنهم يخالفونك فى عيسى ابن مريم . قال : ما تقولون فى عيسى ابن مريم وأمه ؟ قالوا : نقول كما قال الله عز وجل : هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البَتُول ، التى لم يمسها بَشَر ولم يفترضها ولد . قال : فرفع عوداً من الأرض ثم قال : يا معشر الحبشة والقسيين والرهبان ، والله ما يزيدون على الذى نقول فيه ، ما يساوى هذا . مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذى نجد فى الإنجيل ، وأنه الذى بشر به عيسى ابن مريم . انزلوا حيث شئتم ، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه . وأمَرَ بهدية الآخرَين فردت إليهما ، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدراً ، وزعم أن النبى ﷺ استغفر له حين بلَغه موته (٥) .

وقد رُويت هذه القصةُ عن جعفر وأم سلمة رضى الله عنهما،وموضع ذلك كتاب السيرة. والمقصد أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه فى كتبها على أممها ، وتأمرهم باتباعه ونصره ومؤازرته إذا بعث . وكان أول ما اشتهر الأمر فى أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم ، وكذا على لسان عيسى ابن مريم ؛ ولهذا قالوا:

(١) الحاكم فى المستدرك (٢ / ٦٠٠) .

(٢) المسند (٤ / ١٢٧) وقال الهيثمى فى الزوائد (٨ / ٢٢٦) « رواه أحمد بأسانيد وأحد رجالها رجال الصحيح غير سعيد بن سويد وقد وثقه ابن حبان » .

(٣) المسند (٥/ ٢٦٢) وحسنه الهيثمى فى الزوائد (٨ / ٢٢٥) .

(٤) فى المطبوع : « رواحة » ومكانها بياض بالمخطوطة ، والمثبت من المسند .

(٥) المسند (٤٤٠٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده حسن » .

« أخبرنا عن بَدْء أمرك » يعنى : فى الأرض ، قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى ابن مريم ، ورؤيا أمى التى رأت » أى : ظهر فى أهل مكة أثر ذلك والإرهاص بذكره صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ قال ابن جريج وابن جرير : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ أحمد، أى : المبشر به فى الأعصار المتقادمة ، المنوَّه بذكره فى القرون السالفة ، لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة المخالفون : ﴿ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ﴾ أى : لا أحد أظلم ممن يفترى الكذب على الله، ويجعل له أندادا وشركاء ، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص ؛ ولهذا قال: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ . ثم قال : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى : يحاولون أن يَرُدّوا الحق بالباطل ، ومثلهم فى ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه ،وكما أن هذا مستحيل كذلك ذاك مستحيل ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ، وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين فى سورة «براءة» ، بما فيه كفاية ، ولله الحمد والمنة (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

تقدم فى حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة ، أرادوا أن يسألوا عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ليفعلوه ، فأنزل الله هذه السورة ، ومن جملتها هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ثم فسر هذه التجارة العظيمة التى لا تبور ، التى هى محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : من تجارة الدنيا ، والكد لها والتصدى لها وحدها . ثم قال: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ أى : إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه ، غفرت لكم الزلات، وأدخلتكم الجنات ، والمساكن الطيبات، والدرجات العاليات ؛ ولهذا قال: ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ﴾ أى : وأريدكم على ذلك زيادة تحبونها ، وهى : ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أى : إذا قاتلتم فى سبيله ونصرتم دينه ، تكفل الله بنصركم . قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] . وقال تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ

(١) الآيتان (٣٢ ، ٣٣) .

عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] . وقوله : ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أى : عاجل . فهذه الزيادة هى خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة ، لمن أطاع الله ورسوله ، ونصر الله ودينه؛ ولهذا قال : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله فى جميع أحوالهم ، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم ، وأن يستجيبوا لله ولرسوله ، كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال : ﴿ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللهِ ﴾ ؟ أى : من مُعينى فى الدعوة إلى الله عز وجل ؟ ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ وهم اتباع عيسى عليه السلام : ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ ﴾ أى : نحن أنصارك على ما أرسلت به ومؤازروك على ذلك ؛ ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس فى بلاد الشام فى الإسرائيليين واليونانيين . وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول فى أيام الحج : « من رجل يؤوينى حتى أبلغ رسالة ربى، فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ رسالة ربى؟ »(١) . حتى قيض الله عز وجل له الأوس والخزرج من أهل المدينة ، فبايعوه وآزروه، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم ، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وَفَّوا له بما عاهدوا الله عليه؛ ولهذا سماهم الله ورسوله : الأنصار ،وصار ذلك علما عليهم، رضى الله عنهم ، وأرضاهم .

وقوله : ﴿ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ﴾ أى : لما بلغ عيسى ابن مريم عليه السلام رسالة ربه إلى قومه ، وآزره مَن آزره من الحواريين ، اهتدت طائفة من بنى إسرائيل بما جاءهم به، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به ، وجحدوا نبوته ، ورموه وأمه بالعظائم،وهم اليهود ــ عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ــ وغلت فيه طائفة ممن اتبعه، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة ،وافترقوا فِرَقا وشِيَعاً ، فمن قائل منهم :إنه ابن الله. وقائل: إنه ثالث ثلاثة: الأب ، والابن، وروح القدس . ومن قائل : إنه الله . وكل هذه الأقوال مفصلة فى سورة النساء . وقوله : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾ أى : نصرناهم على من عاداهم من فِرَق النصارى ، ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ أى : عليهم ، وذلك ببعثة محمد ﷺ ، كما روى ابن جرير عن ابن عباس ، قال : لما أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى إلى السماء ، خرج إلى أصحابه وهم فى بيت اثنا عشر رجلا ، من عين فى البيت ، ورأسه يقطر ماء ، فقال : إن منكم من يكفر بى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى. قال:ثم قال:أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ، ويكون معى فى درجتى ؟ قال : فقام شاب من أحدثهم سنا فقال : أنا . قال : فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال : أنا . فقال له : اجلس . ثم عاد عليهم فقام الشاب ، فقال : أنا . فقال : نعم ، أنت ذاك . قال : فألقى عليه شبه عيسى ،ورُفع عيسى عليه السلام من روزَنة فى البيت إلى السماء ،قال : وجاء الطلَبُ من اليهود ، فأخذوا شبهَه فقتلوه وصلبوه ، وكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به ، فتفرقوا ثلاث فرق . قالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ، ثم صعد إلى السماء . وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه إليه وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة:كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه،

(١) المسند (٣ / ٣٢٢) والحاكم فى المستدرك (٢ / ٦٢٤) وصححه ، ووافقه الذهبى .

وهؤلاء المسلمون ، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة ، فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ ، ﴿ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ﴾ يعني : الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى ، والطائفة التي آمنت في زمن عيسى ، ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ . هذا لفظه في كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة . وهكذا رواه النسائي [1] .

فأمة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق ، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك ، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح ، والله أعلم .

---

(١) ابن جرير في التفسير (٢٨ / ٦٠) والنسائي في الكبرى (١١٥٩١) .